كتاب أسرار الصلاة

لابن القيم

اللقاء الثالث

لقد مدح الله في كتابه المخبتين له والمنكسرين لعظمته الخاضعين والخاشعين لها، فقال: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)[الأنبياء:90].

ولقد شرعَ الله لعباده من أنواع العبادات ما يظهرُ فيه خشوعُ الأبدانِ الناشئُ عن خشوع القلبِ وذلِه وانكساره، وأعظمُ ما يظهر من ذلك من العبادات الصلاة، وقد مدح الله -تعالى- الخاشعين فيها فقال: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)[المؤمنون:1-2].

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عُثْمَانَ -رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُ-، فَدَعَا بِطَهُورٍ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: "مَا مِنَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا، وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يَأْتِ كَبِيرَةً -أي: ما لم يعملها- وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ"(رواه مسلم).

أي: أن تكفير الذنوب بسبب الخشوع الصلاة مستمر في جميع الأزمان لا يختص بزمان دون زمان.

وعَنْ مُجَاهِدٍ -رحمه الله-، فِي قَوْلِهِ: (وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)[البقرة:238]، قَالَ مِنَ الْقُنُوتِ: "الرُّكُوعُ، وَالْخُشُوعُ، وَغَضُّ الْبَصَرِ، وَخَفْضُ الْجَنَاحِ مِنْ رَهْبَةِ اللهِ -عزَّ وَجَلَّ-"(رواه الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الإِيْمَانِ).

وأصلُ الخشوعِ: هو لينُ القلب ورقتُه، وسكونُه وخضوعُه، وانكسارُه وحرقتُه.. فإذا خشع القلبُ تبعه خشوعُ جميعِ الجوارحِ والأعضاءِ؛ لأنها تابعةٌ له، كما قال رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ"(متفق عليه عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ -رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا-).

فإذا خشعَ القلبُ خشع السمعُ والبصر، والرأس والوجه، وسائر الأعضاء، وما ينشأ منها حتى الكلام.. لهذا كَانَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي رُكُوعِهِ يَقُول: "اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ،

وَلَكَ أَسْلَمْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، أَنْتَ رَبِّي، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي، وَلَحْمِي وَدَمِي، وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمِي"(رواه مسلم عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-).

وعدم الخشوع في الصلاة يقلِّل من أجر العبد، ويُضعِف ثمراتِ الصلاة، والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرَّغ قلبَه للصلاة واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وهذا لا يتأتى إلا بالعلم، والفهم، والإقبال على دراسة الكتب التي تبين لنا أسرار الصلاة، ومفاتيح الخشوع، لهذا اخترنا قراءة هذا الكتاب القيم لابن القيم أسرار الصلاة ونكمل ما بدأنا وهذا هو اللقاء الثالث...

عبودية (إياك نعبد)

فإذا قال: (إيَّاك نعبدُ وإيَّاك نستعين) انتظر جواب ربه له:" هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل ".

وتأمل عبودية هاتين الكلمتين وحقوقهما، وميِّز الكلمة التي لله سبحانه وتعالى، والكلمة التي للعبد، وفِقهِ سرَّ كون إحداهما لله، والأخرى للعبد، وميِّز بين التوحيد الذي تقتضيه كلمة (إيَّاك نعبدُ) والتوحيد الذي تقتضيه كلمة (وإيَّاك نستعين)، وفِقهَ سرَّ كون هاتين الكلمتين في وسط السورة بين نوعي الثناء قبلهما، والدعاء بعدهما، وفِقه تقديم (إياك نعبد) على (وإياك نستعين)، وتقديم المعمول على العامل مع الإتيان به مؤخرا أوجز وأخضر، وسرَّ إعادة الضمير مرَّة بعد مرة.

تقديم العبادة على الاستعانة

قلت: أراد تقديم العبادة وهي العمل على الاستعانة، فالعبادة لله والاستعانة للعبد، فالله هو المعبود، وهو المستعان على عبادته، فإياك نعبد؛ أي إياك أريد بعبادتي، وهو يتضمن العمل الصالح الخالص، والعلم النافع الدال على الله، معرفة ومحبة، وصدقا وإخلاصا، فالعبادة حق الرب تعالى على خلقه، والاستعانة تتضمن استعانة العبد بربه على جميع أموره، وهي القول المتضمن قسم العبد.

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قال السعدي: أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه. فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك ولا نستعين بغيرك. وقدم العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واهتماما بتقديم حقه تعالى على حق عبده.

✉فكل عبادة لا تكون لله وبالله فهي باطلة مضمحلة، وكل استعانة لا تكون بالله وحده فهي خذلانٌ وذل.

✉وتأمل علم ما ينفع العباد وما يدفع عنهم كل واحد من هاتين الكلمتين من الآفة المنافية للعبودية نفعا ودفعا وكيف تدخل العبد هاتان الكلمتان في صريح العبودية.

📝فَهَذِهِ هِيَ أَجْزَاءُ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة: 5] فَإِذَا رَكَّبَهَا الطَّبِيبُ اللَّطِيفُ، الْعَالِمُ بِالْمَرَضِ، وَاسْتَعْمَلَهَا الْمَرِيضُ، حَصَلَ بِهَا الشِّفَاءُ التَّامُّ، وَمَا نَقَصَ مِنَ الشِّفَاءِ فَهُوَ لِفَوَاتِ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا، أَوِ اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ.

📝ثُمَّ إِنَّ الْقَلْبَ يَعْرِضُ لَهُ مَرَضَانِ عَظِيمَانِ، إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُمَا الْعَبْدُ تَرَامَيَا بِهِ إِلَى التَّلَفِ وَلَا بُدَّ، وَهُمَا الرِّيَاءُ، وَالْكِبْرُ، فَدَوَاءُ الرِّيَاءِ بِ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) [الفاتحة: 5] وَدَوَاءُ الْكِبْرِ بِ (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة: 5].

📝وَكَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ يَقُولُ: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) [الفاتحة: 5] تَدْفَعُ الرِّيَاءَ (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة: 5] تَدْفَعُ الْكِبْرِيَاءَ.

📝فَإِذَا عُوفِيَ مِنْ مَرَضِ الرِّيَاءِ بِ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) [الفاتحة: 5] وَمِنْ مَرَضِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعُجْبِ بِ (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة: 5] وَمِنْ مَرَضِ الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ بِ (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) [الفاتحة: 6] عُوفِيَ مِنْ أَمْرَاضِهِ وَأَسْقَامِهِ، وَرَفَلَ فِي أَثْوَابِ الْعَافِيَةِ، وَتَمَّتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ، وَكَانَ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْقَصْدِ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ وَالضَّالِّينَ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْعِلْمِ، الَّذِينَ جَهِلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ.

📋قال ابن كثير: أي لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل.

📝و(نعبد) أي نتذلل لك أكمل ذلّ؛ ولهذا تجد المؤمنين يضعون أشرف ما في أجسامهم في موطئ الأقدام ذلاً لله عزّ وجلّ: يسجد على التراب؛ تمتلئ جبهته من التراب.

فـ "العبادة" تستلزم أن يقوم الإنسان بكل ما أُمر به، وأن يترك كل ما نُهي عنه؛ ولا يمكن أن يكون قيامه هذا بغير معونة الله؛ ولهذا قال تعالى: (وإياك نستعين) أي لا نستعين إلا إياك على العبادة، وغيرها.

العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

لماذا حصرنا العبادة على الله؟ لأنه -سبحانه وتعالى- المتفرد بصفات الجلال والكمال والجمال، والمتفرّد بالنعم الظاهرة والباطنة، إذًا، لا يستحق العبادة إلا الله، وحق الله -سبحانه وتعالى- علينا عظيم!

(العبادة أعلى مراتب الخضوع ولا يجوز شرعاً ولا عقلا فعلها إلا لله تعالى لأنه المستحق لذلك لكونه موليا لأعظم النعم من الحياة والوجود وتوابعهما). الألوسي

(إياك نعبد) ⬅ الإتيان بضمير الجمع في الموضع أحسن وأفخم، فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى، وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته، فأتى به بصيغة ضمير الجمع أي نحن معاشر عبيدك مقرون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك، فيكون هذا أحسن وأعظم موقعاً عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك.

(إياك نعبد) ⬅ كأنك بضعفك وتقصيرك ومعصيتك تدخل مع باقي العباد الصالحين كأنك تقول إني بضعفي لا أحقق كمال العبادة.

كلما كان العبد أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له: كان أقرب إليه، وأعز له، وأعظم لقدره، فأسعد الخلق: أعظمهم عبودية لله.

(وإياك نستعين) ⬅ لأننا لا نقدر على شيء، وأنت تقدر على كل شيء.

الاستعانة معناها في الشرع: اعتماد القلب على الله في جلب المنافع الدينية والدنيوية، ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع كمال الثقة به!

و "الاستعانة": طلب العون؛ والله سبحانه وتعالى يجمع بين العبادة، والاستعانة، أو التوكل في مواطن عدة في القرآن الكريم؛ لأنه لا قيام بالعبادة على الوجه الأكمل إلا بمعونة الله، والتفويض إليه، والتوكل عليه.

والاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله والاعتماد عليه.

الاستعانة: هذه العبادة العظيمة، كثير ما يغفل عنها المرء؛ لأنه اغتر بعطاء الله له! يعطيه الله – عز وجل – الحول والقوة فيظن المسكين أن الحول والقوة هذه من عند نفسه!

والحقيقة أننا فقراء إلى الله بعدد أنفاسنا، لذلك نحن نحتاج ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، في كل خطوة نخطوها في حياتنا، سواء في قضاء أمورنا الدينية أو أمورنا الدنيوية، وحتى في أمور الدنيا نحتاج العون من الله – سبحانه وتعالى–.

لأن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول.

القرآن مداره على هذه الكلمة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

وتأمل عِلم كيف يدور القرآن كلّه من أوّله إلى آخره عليهما، وكذلك الخلق، والأمر والثواب والعقاب والدنيا والآخرة، وكيف تضمّنتا لأجلِّ الغايات، وأكمل الوسائل، وكيف أتى بهما بضمير المخاطب الحاضر، دون ضمير الغائب، وهذا موضوع يستدعي كتابا كبيرا، ولولا الخروج عمَّا نحن بصدده لأوضحناه وبسطناه، فمن أراد الوقوف عليه فقد ذكرناه في كتاب: "مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين " وفي كتاب " الرسالة المصرية ".

ضرورة العبد لقول (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

ثم ليتأمل العبد ضرورته وفاقته إلى قوله (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) الذي مضمونه معرفة الحق، وقصده وإرادته العمل به، والثبات عليه، والدعوة إليه، والصبر على أذى المدعو إليه فباستكمال هذه المراتب الخمس يستكمل العبد الهداية وما نقص منها نقص من هدايته.

ولما كان العبد مفتقرا إلى هذه الهداية في ظاهره وباطنه، بل وفي جميع ما يأتيه، ويذره من:

أنواع الهدايات التي يفتقر لها العبد

❍أمور فعلها على غير الهداية علما وعملا وإرادة، فهو محتاج إلى التوبة منها وتوبته منها هي من الهداية.

❍وأمور قد هُدي إلى أصلها دون تفصيلها فهو محتاج إلى هداية تفاصيلها.

❍وأمور قد هُدي إليها من وجهٍ دون وجهٍ، فهو محتاجٌ إلى تمام الهداية في كمالها على الهدى المستقيم، وأن يزداد هدى إلى هداه.

❍وأمور هو محتاج فيها إلى أن يحصل له من الهداية في مستقبلها مثل ما حصل له في ماضيها.

❍وأمور هو خال عن اعتقاد فيها فهو محتاج إلى الهداية فيها اعتقادا صحيحا.

❍وأمور يعتقد فيها خلاف ما هي عليه، فهو محتاج إلى هداية تنسخ من قلبه ذلك الاعتقاد الباطل، وتُثبت فيه ضدّه.

❍وأمور من الهداية: هو قادر عليها، ولكن لم يخلق له إرادة فعلها، فهو محتاج في تمام الهداية إلى خلق إرادة.

❍وأمور منها: هو غير قادر على فعلها مع كونه مريد لها، فهو محتاج في هدايته إلى إقدار عليها.

❍وأمور منها: هو غير قادر عليها ولا مريد لها، فهو محتاج إلى خلق القدرة عليها والإرادة لها لتتم له الهداية.

❍وأمور: هو قائم بها على وجه الهداية اعتقادا وإرادة، وعلما وعملا، فهو محتاج إلى الثبات عليها واستدامتها، فكانت حاجته إلى سؤال الهداية أعظم الحاجات، وفاقته إليها أشد الفاقات، ولهذا فرض عليه الرب الرحيم هذا السؤال على العبيد كلّ يوم وليلة في أفضل أحواله، وهي الصلوات الخمسُ، مرات متعددة، لشدَّة ضرورته وفاقته إلى هذا المطلوب.

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

قال ابن تيمية: أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)، فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قال ابن القيم: أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعه الهداية إلى صراطه المستقيم، المتضمن كمال معرفته وتوحيده، وعبادته بفعل ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه، والاستقامة عليه إلى الممات، مع تضمنها: تزكية النفوس، وإصلاح القلوب.

أي دلنا وأرشدنا، ووفقنا إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله وإلى جنته.

هذا دعاء فيه بيان أعظم مطالب المؤمنين وهو سؤال الله الهداية، أي أننا ندعوا الله أن يسلك بنا أكمل الطرق واقربها إليه وأقصرها، نسأله الطريق الموصل إلى رضاه سبحانه عز وجل.

وحاجتنا أن ندعوا بالهداية أعظم من الحاجة إلى الدعاء بالنصر والرزق؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الحاجة إلى الهدى أعظم من الحاجة إلى النصر والرزق؛ بل لا نسبة بينهما؛ لأنه إذا هُدي كان من المتقين، (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ).

والمراد بـ (الصِّرَاطَ) الطريق؛ والمراد بـ "الهداية" هداية الإرشاد، وهداية التوفيق؛ وفي سؤالنا لله (اهدنا) نطلب نوعي الهداية:

البيان والدلالة (هي العلم النافع) الموافق للحق، ومن دقائق ذلك الهداية في الأمور المختلف فيها.

التوفيق والالهام (العمل الصالح)، هي قبول القلب للحق، وانشراحه به، ومحبته له، والعمل به.

الهداية هي: معرفة الحق والعمل به، فلا يكفي معرفة الحق دون العمل به، فالكثير من الناس يعرفون الحق ولا يعملون به، واليهود يعرفون صدق محمد ولم يتبعوه.

يقول الله -عز وجل- في الحديث القدسي: (يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم)، هل نستشعر أننا في ضلال لولا أن هدانا الله -عز وجل- ؟!، لو طلبت الهداية من الله في كل

خطوات حياتك، مستشعر فقرك وذلك وحاجتك لله؟ وعدك الله ومن أصدق من الله قيلاً سيهديك يقيناً.

📄قال ابن القيم: على قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط؛ فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطّرف... فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا؛حذو القُذَّة بالقُذَّة جزاءً وفاقاً؛(هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)[النمل: ٩٠].

📄وقال القرطبي رحمه الله: "تفكَّر الآن فيما يحل بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقَّتَه، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرَع سمعَك شهيق النار وتغيُّظُها، وقد كُلِّفت أن تمشي على الصراط، مع ضعف حالك، واضطراب قلبك، وتزلزل قدمك، وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك من المشي على بساط الأرض، فضلاً عن حدة الصراط، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك، فأحسست بحدَّته، واضطررت إلى أن ترفع قدمك الثانية، والخلائق بين يديك يزِلُّون ويتعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكَلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون إلى جهة النار رؤوسهم وتعلو أرجلهم، فيا له من منظر ما أفظعَه، ومرتقًى ما أصعبَه، ومجال ما أضيقَه، فاللهم سلِّم سلم".

📧إذن على قدر سعينا وتقربنا إلى الله في هذه الدنيا، وسرعة الاستجابة لأوامر الله، والمسارعة في ترك ما نهى عنه الله، سيكون سيرنا على الصراط يوم القيامة، والله المستعان، وعلى قدر محبتنا وشوقنا إلى الله وسعينا لمرضاته في هذه الدنيا بالأفعال والأقوال وما تُخفي القلوب، سيكون سعيُنا يوم القيامة على الصراط المستقيم.

✉ثم بيَّن أن سبيل أهل هذه الهداية مغاير لسبيل أهل الغضب وأهل الضلال، وهو اليهود، والنصارى وغيرهم.

📩فانقسم الخلق إذن إلى ثلاثة أقسام بالنسبة إلى هذه الهداية:

❁مُنعم عليه: بحصولها له واستمرارها وحظه من المنعم عليهم، بحسب حظه من تفاصيلها وأقسامها.

❁وضالٌ: لم يُعطَ هذه الهداية ولم يُوفق لها.

✿ومغضوب عليه: عَرفها ولم يوفق للعمل بموجبها.

❍فالضال: حائد عنها، حائر لا يهتدي إليها سبيلا.

❍والمغضوب عليه: متحيّر منحرف عنها؛ لانحرافه عن الحق بعد معرفته به مع علمه بها.

⇦فالأول المنعم عليه قائم بالهدى، ودين الحق علما وعملا واعتقادا والضال عكسه، منسلخ منه علما وعملا.

⇦والمغضوب عليه لا يرفع فيها رأسا، عارف به علما منسلخ عملا، والله الموفق للصواب.

⌧ولولا أن المقصود التنبيه على المضادة والمنافرة التي بين ذوق الصلاة، وذوق السماع، لبسطنا هذا الموضوع بسطا شافيا، ولكن لكلِّ مقام مقال، فلنرجع إلى المقصود.

عبودية التأمين ورفع اليدين

⌧وشرع له التأمين في آخر هذا الدعاء تفاؤلا بإجابته، وحصوله، وطابعا عليه، وتحقيقا له، ولهذا اشتد حسدُ اليهود للمسلمين عليه حين سمعُوهم يجهرون به في صلاتهم.

قال -ﷺ-: " إذا قالَ أحَدُكُمْ: آمِينَ، وقالتِ المَلائِكَةُ في السَّماءِ: آمِينَ، فَوافَقَتْ إحْداهُما الأُخْرَى غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ. " متفق عليه

وقال آمين؛ فإنه يقينا سيستجيب الله له، فيملأ قلبه إيمانًا ويقينًا وعلمًا نافعًا، ويوفقه إلى العمل الصالح، أما من دعا وقلبه لاهٍ غافل، فإنه لا يستجاب له، قال النبي -ﷺ-:(لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ) لابد أن يكون القلب حاضرًا حتى تتحقق للعبد الإجابة.

⌧ثم شرع له رفع اليدين عند الركوع تعظيما لأمر الله، وزينةً للصلاة، وعبودية خاصةً لليدين كعبودية باقي الجوارح، واتباعا لسنَّة رسول الله -ﷺ- فهو حليةُ الصلاة، وزينتها وتعظيمٌ لشعائرها.

⌧ثم شرع له التكبير الذي هو في انتقالات الصلاة من رُكن إلى ركن، كالتلبية في انتقالات الحاجِّ، من مشعر إلى مشعر، فهو شعار الصلاة، كما أن التلبية شعار الحج، (مميز ليعلم أن سر الصلاة هو تعظيم الرب تعالى وتكبيره بعبادته وحده.)

عبودية الركوع

ثم شرع له بأن يخضع للمعبود سبحانه بالركوع خضوعا لعظمة ربه، واستكانة لهيبته وتذللا لعزته.

فثناء العبد على ربه في هذا الركن؛ هو أن يحني له صلبه، ويضع له قامته، وينكس له رأسه، ويحني له ظهره، ويكبره مُعظما له، ناطقا بتسبيحه، المقترن بتعظيمه.

فاجتمع له خضوع القلب، وخضوع الجوارح، وخضوع القول على أتم الأحوال، ويجتمع له في هذا الركن من الخضوع والتواضع والتعظيم والذكر ما يفرق به بين الخضوع لربه، والخضوع للعبيد بعضهم لبعض، فإنَّ الخضوع وصف العبد، والعظمة وصف الرب.

وتمام عبودية الركوع أن يتصاغر الراكع، ويتضاءل لربه، بحيث يمحو تصاغره لربه من قلبه كلَّ تعظيم فيه لنفسه، ولخلقه ويثبت مكانه تعظيمه ربه وحده لا شريك له.

إذا عظم القلب الرب خرج تعظيم الخلق

وكلما استولى على قلبه تعظيم الربِّ، وقوى خرج منه تعظيم الخلق، وازداد تصاغره هو عند نفسه فالركوع للقلب بالذات، والقصد والجوارح بالتبع والتكملة.

ثم شرع له أن يحمد ربه، ويثني عليه بآلائه عند اعتداله وانتصابه ورجوعه إلى أحسن هيئاته، منتصب القامة معتدلها فيحمد ربه ويثني عليه بآلائه عند اعتداله وانتصابه ورجوعه إلى أحسن تقويم، بأن وفقه وهداه لهذا الخضوع الذي قد حرمه غيره.

عبودية القيام

ثم نقله منه إلى مقام الاعتدال والاستواء، واقفا في خدمته، بين يديه كما كان في حالة القراءة في ذلك، ولهذا شرع له من الحمد والمجد نظير ما شرع له من حال القراءة في ذلك.

ولهذا الاعتدال ذوقٌ خاص وحال يحصل للقلب، ويخصه سوى ذوق الركوع وحاله، وهو ركنٌ مقصود لذاته كركن الركوع والسجود سواء.

✉ولهذا كان رسول الله ﷺ يُطيلُه كما يطيل الركوع والسجود، ويُكثر فيه من الثناء والحمد والتمجيد، كما ذكرناه في هديه ﷺ في صلاته وكان في قيام الليل يُكثر فيه من قول: " لربي الحَمد، لربي الحمد " ويكرّرها.

"كان رسولُ اللهِ -ﷺ- إذا رفَع رأسَه مِن الرَّكوعِ قال: ربَّنا لك الحمدُ، مِلْءَ السَّمواتِ والأرضِ، ومِلْءَ ما شِئتَ مِن شيءٍ بعدُ، أهلَ الثَّناءِ والمجدِ، أحقُّ ما قال العبدُ، وكلُّنا لك عبدٌ، اللهمَّ لا مانعَ لِما أعطَيتَ، ولا مُعطيَ لِما منَعتَ، ولا ينفَعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ". رواه مسلم

عبودية السجود

✉ثم شرع له أن يكبر ويدنو ويخرَّ ساجدا، ويُعطي في سجوده كل عضو من أعضائه حظَّه من العبودية، فيضع ناصيته بالأرض بين يدي ربه، مسندة راغما له أنفه، خاضعا له قلبه، ويضع أشرف ما فيه وهو وجهه بالأرض ولاسيما وجه قلبه مع وجهه الظاهر ساجدا على الأرض معفِّرا له وجهه وأشرف ما فيه بين يدي سيِّده، راغما أنفه، خاضعا له قلبه وجوارحه، متذلِّلا لعظمة ربه، خاضعا لعزَّته، منيبا إليه، مستكينا ذلا وخضوعا وانكسارا، قد صارت أعاليه ملويةً لأسافله.

✉وقد طابق قلبُه في ذلك حال جسده، فسجد القلب للرب كما سجد الجسد بين يدي الله، وقد سجد معه أنفه ووجهه، ويداه وركبتاه، ورجلاه فهذا العبد هو القريب المقرَّب فهو أقرب فهو ما يكون من ربه وهو ساجد.

قال رسول الله -ﷺ-: «أُمِرْتُ أن أَسْجُدَ على سَبْعَةِ أَعْظُمٍ: على الْجَبْهَةِ -وأشار بيده إلى أنفه- واليدين، والرُّكْبَتَيْنِ، وأطراف القدمين». متفق عليه

✉وشرع له أن يُقلَّ فخذيه عن ساقيه، وبطنه عن فخذيه وعَضُديه عن جنبيه، ليأخذ كل جزءٍ منه حظّه من الخضوع لا يحملَ بعضه بعضا.

✉فأحرِ به في هذه الحال أن يكون أقرب إلى ربه منه في غيرها من الأحوال كلِّها، كما قال النبي ﷺ: " أَقْرَبُ ما يَكونُ العَبْدُ مِن رَبِّهِ، وهو ساجِدٌ ". [صحيح مسلم].

📂ولما كان سجود القلب خضوعه التام لربّه أمكنه استدامة هذا السجود إلى يوم القيامة، كما قيل لبعض السلف:

📄هل يسجد القلب؟ قال: " أي والله سجدةً لا يرفع رأسه منها حتى يلقى الله عزَّ وجل ".

✉إشارة إلى إخبات القلب، وذلّه، وخضوعه، وتواضعه وإنابته وحضوره مع الله أينما كان، ومراقبته له في الخلاء والملأ، ولما بنيت الصلاة على خمس: القراءة والقيام والركوع والسجود والذكر.

✉الصلاة مبناها على خمسة أركان سمّيت باسم كل واحد من هذه الخمس:

❶فسمّيت " قياما " لقوله: (قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا) [المزمل:2]، وقوله: (وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) [البقرة:238].

❷و"قراءة" لقوله: (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) [الإسراء:78]، (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) [المزمل:20].

❸وسمّيت " ركوعا " لقوله: (وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) [البقرة:43]، (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ) [المرسلات:48].

❹و" سجودا " لقوله: (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ) [الحجر:98]، وقوله (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب) [العلق:19].

❺و"ذكرا " لقوله: (فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ) [الجمعة:9]، (لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ) [المنافقون:9].

✉وأشرف أفعالها السجود، وأشرف أذكارها القراءة، وأول سورة أنزلت على النبي ﷺ سورة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) افتتحت بالقراءة، وخُتمت بالسجود، فوضعت الركعة على ذلك، أولها قراءة وآخرها سجود.

📣حال العبد بين السجدتين

✉ثم شرع له أن يرفع رأسه، ويعتدل جالسا، ولما كان هذا الاعتدال محفوفا بسجودين ؛ سجود قبله، وسجود بعده، فينتقل من السجود إليه، ثم منه إلى السجود الآخر، كان له شأن، فكان رسول الله ﷺ يطيل الجلوس بين السجدتين بقدر السجود يتضرع إلى ربه فيه، ويدعوه ويستغفره، ويسأله رحمته،

وهدايته ورزقه وعافيته، وله ذوق خاص، وحال للقلب غير ذوق السجود وحالهن ؛ فالعبد في هذا القعود يتمثَّل جاثيا بين يدي ربه، مُلقيا نفسه بين يديه، مُعتَذرا إليه مما جَنَاه، راغبا إليه أن يغفر له ويرحمه، مستَعديا له على نفسه الأمَّارة بالسوء.

سبب الاستغفار بين السجدتين

وقد كان النبي ﷺ يكرر الاستغفار في هذه الجلسة فيقول: " رَبِّ اغفِرْ لي، رَبِّ اغفِرْ لي "، ويكثر من الرغبة فيها إلى ربه.

فمثِّل أيها المصلي نفسك فيها بمنزلة غريم عليه حق، وأنت كفيل به، والغريم مماطل مخادع، وأنت مطلوب بالكفالة، والغريم مطلوب بالحق، فأنت تستعدي عليه حتى تستخرج ما عليه من الحق، لتتخلص من المطالبة، والقلب شريك النفس في الخير والشر، والثواب والعقاب، والحمد والذم.

والنفس من شأنها الإباق والخروج من رقِّ العبودية، وتضييع حقوق الله عز وجل وحقوق العباد التي قبلها، والقلب شريكها إن قوي سلطانها وأسيرها، وهي شريكته وأسيرته إن قوي سلطانه.

فشرع للعبد إذا رفع رأسه من السجود أن يجثو بين يدي الله تعالى مستعديا على نفسه، معتذرا من ذنبه إلى ربه ومما كان منها، راغبا إليه أن يرحمه ويغفر له ويهديه ويرزقه ويعافيه، وهذه الخمس كلمات، قد جمعت جماع خير الدنيا والآخرة فإن العبد محتاج بل مضطر إلى تحصيل مصالحه في الدنيا وفي الآخرة، ودفع المضار عنه في الدنيا والآخرة، وقد تضمّن هذا الدعاء ذلك كله.

كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ يقولُ بينَ السَّجدتينِ في صلاةِ اللَّيلِ "ربِّ اغفِر لي وارحَمني واجبُرني وارزُقني وارفَعني" صحيح ابن ماجه

وروي هذا الحديث بألفاظ مختلفة، وفي بعضها زيادات على بعض، وحاصل ما روي في هذا الدعاء سبع كلمات: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاجْبُرْنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي، وَعَافِنِي، وَارْفَعْنِي).

فإن الرزق يجلب له مصالح دنياه وأخراه ويجمع رزق بدنه ورزق قلبه وروحه، وهو أفضل الرازقين.

والعافية تدفع مضارّها.

❍والهداية تجلب له مصالح أخراه.

❍والمغفرة تدفع عنه مضارّ الدنيا والآخرة.

❍والرحمة تجمع ذلك كلّه. والهداية تعمُّ تفاصيل أموره كلّها.

✉وشرع له أن يعودَ ساجدا كما كان، ولا يكتفي منه بسجدة واحدة في الركعة كما اكتفى منه بركوع واحد ؛ وذلك لفضل السجود وشرفه وقرب العبد من ربّه وموقعه من الله عز وجل، حتى إنَّه أقرب ما يكون إلى ربه وهو ساجد، وهو أشهر في العبودية وأعرق فيها من غيره من أركان الصلاة ؛ ولهذا جُعل خاتمة الركعة، وما قبله كالمقدمة بين يديه، فمحلّه من الصلاة محل طواف الزيارة، وكما أنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فكذلك أقرب ما يكون منه في المناسك وهو طائف كما قال ابن عمر لمن خطب ابنته وهو في الطواف فلم يرد عليه فلما فرغ من الطواف قال: أتذكر أمرا من أمور الدنيا ونحن نتراءى لله سبحانه وتعالى في طوافنا.

ولهذا والله أعلم، جُعل الركوع قبل السجود تدريجا وانتقالا من الشيء إلى ما هو أعلى منه.

📠لم يكرر السجود مرتين

✉وشُرع له تكرير هذه الأفعال والأقوال؛ إذ هي غذاء القلب والروح التي لا قوام لهما إلا بها، فكان تكريرها بمنزلة تكرير الأكل لقمة بعد لقمة حتى يشبع، والشرب نفسا بعد نفس حتى يَروى، فلو تناول الجائع لقمة واحدة ثم دفع الطعام من بين يديه فماذا كانت تغني عنه تلك اللقمة؟ وربما فتحت عليه باب الجوع أكثر مما به؛ ولهذا قال بعض السلف: " مثل الذي يصلي ولا يطمئن في صلاته كمثل الجائع إذا قدم إليه طعام فتناول منه لقمة أو لقمتين ماذا تغني عنه ذلك".

✉وفي إعادة كل قول أو فعل من العبودية والقرب، وتنزيل الثانية منزلة الشكر على الأولى، وحصول مزيد خير وإيمان من فعلها، ومعرفة وإقبال وقوة قلب، وانشراح صدر وزوال درنٍ ووسخٍ عن القلب بمنزلة غسل الثوب مرَّة بعد مرَّة.

✉فهذه حكمة الله التي بَهَرت العقول حكمته في خلقه وأمره، ودلَّت على كمال رحمته ولطفه، وما لم تحط به علما منها أعلى وأعظم وأكبر وإنما هذا يسير من كثير منها.